المقارنة ، ج ـ منهج يعتمد على البحث المقنن بشروط محددة ، د ـ منهج يجمع بين كافة الاساليب السابقة في الدراسة . ونلاحظ ان المناهج المذكورة آنفا هي من ضمن مناهج الدراسة الاجتماعية والنفسية عموما . وقد اعتمد شارلس دارون ولوكيه وهلجا انج وآخرون غيرهم ، على المنهج الاول ، اي الملاحظة المباشرة في دراسة رسوم ابنائهم ، وان تفاوت كل منهم في مدى انصرافه للدراسة المعينة وفي تتبع سلوك ابنه اثناء الرسم، وكذلك في طبيعة النتائج التي توصل كل منهم اليها. كما نحى كل من كرشنشتينر وجورج روما وسرل برت وستيلا اجنس مكارثي وروز الشولر ولابرتا هاتوك وآخرون غيرهم الى دراسة رسوم الاطفال بأسلوب البحث المقنن ، الذي يتوجه غالبا الى متابعة مجموعات كبيرة من الاطفال . اما الدراسة المقارنة ، فهي ملحوظة في أعمال اولئك الذين يهتمون بتتبع مدى التفاوت بين نتائج الباحثين الذين سبق ان قاموا بتجارب متماثلة ، وهو ما نلاحظه في الكتابات المعاصرة(٢٧). كذلك يلجأ كل باحث في شؤون رسوم الاطفال الى مقارنة نتائجه بنتائج غيره اذا ما انطلقوا من أساسات واحدة . فيعمد كل باحث الى اظهار أوجه التعارض او التشابه ، من خلال نماذج أصلية من رسوم الاطفال ، او برسوم توضيحية ، او باحصاءات(٢٨).

وتعتبر الطريقة التي استخدمت في تجربتنا مع اطفال مخيم البقعة ، مزيجا من عدة أساليب ، اذ ان السبب يعود الى طبيعة التجربة الاستكشافية العامة ، حيث لم تكن تستهدف تتبع موضوع بعينه ، او ملاحقة شريحة من عمر زمني معين ، كما لم تستهدف غرضا اجتماعيا او سايكولوجيا او فنيا او ثقافيا بصورة محددة . وانما كانت تتناول هذه الامور من حيث المحصلة العامة، لذلك، فقد كانت التجربة واسعة من حيث شمولها لاعداد كبيرة من الاطفال الاناث والذكور ، ومن فئات سن متعددة ، كما اعتمدت التجربة عموما في كافة مراحلها على عدة اساليب في دراسة هذه الرسوم، اذ اعتمدت على الملاحظة المباشرة ، من حيث كونها تترك للاطفال تلقائيتهم في التعبير ، وان كنا لم نهمل محاولة تعريف الاطفال للالوان وطبيعتها ، دون املاء وجهة نظر في طريقة التعبير ذاتها . وقد كفل ذلك مميزات هذه الطريقة ، مثل تيسير « الحصول على حقائق صحيحة بالنسبة للتعبير الحر للطفل»..

كما انها تفسر الظروف البيئية التي لعبت دورا بارزا في ابراز هذه التعابير بشكلها المميز .

والواقع ان الملاحظة المباشرة ، قد استخدمت في مجموعات كبيرة من الاطفال ، كنا نتتبع رسومهم يوميا . واحيانا نضمن رسومهم نفسها ، او في دفاتر خاصة ، ملاحظاتنا حولها . كذلك ، في فترة لاحقة تتبعنا بنفس الاسلوب بضعة اطفال ، عندما تيسر لنا الحصول على « استديو » خاص للرسم في المخيم . ومن جهة ثانية فقد اعتمدت تجربتنا على بعض مزايا الاسلوب القائم على الطريقة المقننة دون بعضها الاخر ، مثل جمع الرسوم وفحصها على اساس السن او الصف الدراسي ، وتقنين الرسوم التي تنتمي الى فئة سن واحدة الى اناث وذكور . وقد ساعد على التقنين وجود تجانس عام بين مجموعات الاطفال ، من حيث البيئة ، العمر الزمني ، الثقافة ، التجربة .. الخ ، بحكم وجودهم في مناخ اجتماعي وبيئة واحدة (المخيم). لذلك يمكن القول ، ان « العينات » او الشرائح التي اجريت عليها التجربة ، قابلة للتعميم على صعيد اطفال المخيمات التي اقيمت بعد الحرب في الاردن .

واخيرا ، فان التجربة، قد سمحت ببعض المقارنات، سواء من حيث اوجه التشابه والتعارض بين رسوم الاطفال الذكور والاناث ، او من حيث موضوعات وطريقة المعالجة عند فئات متفاوتة في النمو عند الجنسين . والتجربة ما زالت تسمح بمقارنات متعددة الاوجه ما بين رسوم اطفال المخيمات في الاردن ، وانظارهم في المدن ، او بين اطفال المخيمات في عدة اقطار عربية (الاردن ، سوريا ، لبنان) او بين الاطفال الفلسطينيين والاطفال العرب من اقطار شقيقة اخرى ... الخ . وعلى ذلك ، فانه يمكن القول ان الملاحظات الشخصية ، التي كانت تتبع التجربة اولا بأول ويوميا ، مضافا اليها المعلومات المدونة حول السن ، الجنس ، السنة الدراسية والاسئلة الشخصية الموجهة للاطفال ، وملاحظات الاطفال نفسها ، قد وفرت أساسا للتقنين وساعدت في تحديد الظواهر المرتبطة بكل مرحلة زمنية ، وفي وضع هذه الرسوم داخل الاطار الموضوعي الذي يحكم نمو الاطفال .

عند مراجعتي لملاحظاتي الاولية حول مراحل نمو التعبير عند الاطفال النازحين في مخيم البقعة ،